ضِـــفَّـــتـــانِ لتأنيثِ لُغةِ الغَريب

. جـــواد أيلول .

خلفَ المدنِ أُرتِّبُ ليليَ أدراجًا

خلف الليلْ

مُدني وأصائصُ صمتي

مدني أللّيلُ الماضي

الحاضر والحلمُ

يلهثُ تحت مصابيح الليل الصفراء

يعدّ الدرجات الحجريّةَ:

قلتُ سأصعدُ:

كالغرباء أخاف بقائي عند

الناصية وحيداً. أخشى أن

يتأخّرَ عن موعدنا أحدٌ ما.

أحدٌ ما. أنظر للساعة. أخشى

ضحكاتٍ لا أعرفها. كالغرباء

أُلملم وقتي بأصابعِ كفّي،

أُخبّي منه قليلاً للّيلِ أُعاقِرهُ

سراً وأمدُّ الدرجاتِ إلى أفقٍ

نامت فيه الأقمار الباردةُ:

قلتُ سأصعدُ

قلتُ سأصعد لأؤنّثَ ما يتبقّى من حُلمي في دهشته:

قلتُ:

أسمّيكِ الحلمَ

فعرّي نهديْكِ يَصِرْ لي بيتٌ ووشاحٌ

واتّخذيني قلبًا يَعْبرُ من بردِ الفجرِ وراءَ

الشبّاكِ ويهمسُ في نومكْ

كالغرباء

أصفّقُ للموسيقيينَ على الأرصفةِ وأقطفُ من وجهي ما

يكفي كي نتقاسم ضحكًا مبتلاً برذاذِ المعدنِ والثلجْ

كم من مدنٍ

قلتُ

وكم من موسيقيين لأبسمَ تحت الثّلج

وأجلسَ لأرتّبَ ما يبقى من خوفي:

ثمّة قاطرةٌ أخرى، متعبةٌ، لليل ستطرح قُبَلاً

أذرعَ

شالاتٍ وحقائبَ

تعبًا ونعاسًا

ضحكًا

قلقًا

أحلامًا ونبيذًا:

كم نهداً تحتاجُ محطّاتُ المدنِ الثلجيّةِ كي يبنيَ عشّهُ

دوريٌّ آخرُ فوق جفونِ الغرباءْ؟

كم من نهدٍ؟

كم من مدنٍ؟

قلتُ:

أسمّيك المدنَ إذا لم تعرفْني الأرصفةُ. أعيديني

ولداً تتفتّحُ في شفتيهِ الحَلمةُ واتّخذيني نجماً

شرقيًا يترنّحُ كأذان الفجر على نوم دمشقَ

ليهوي عشقًا في الموج الوافد ليقبّل قدميْ وهرانْ

خلف المدن أرتّب ليلي أدراجًا

قلتُ سأصعد

قلت سأصعد وأسمّيك دمشقَ ـ العشقَ الشهقةَ في الرعشةِ أو في الدّهشةِ أو في الخوفِ

أسمّيكِ البيتَ

الطفلَ اللاهي عند العتبةِ

وأسمّيكِ الصُّبحَ

حقيبةَ كتبي

مدرَستي

رائحةَ الكعكِ

أصابع أمّي تعقدُ أزرارَ المريلةِ وتوصي ألا آكل حلوى في درب العودة ظهراً!

وأسمّيك خشونةَ صوتي

وبراً يبزغُ في صدري

خجلي

أحلامي السريّةَ

ورسائلَ حبّي لابنة جيرانٍ لا أعرفها

قلت أسمّيك دمشق ـ الطفلَ ـ الشهقةَ

فاتّخذيني بيتًا لأسمّيك الغربةَ

غطّي وجعي بالملحِ أسمّيكِ الوجعَ ـ الملحَ ـ الجوعَ إلى التأنيث

اتّخذيني حفنةَ عشبٍ في سفح النهد لأشرقَ ثانيةً من غرب المتوسّطِ

قلتُ سأصعد:

لمّي ليلي عن أدراج المدن الباردة لأحفظَ شيئًا من لغتي للحلم:

خذيني لشبابيكِ

بيوتٍ يدمعُ فيها

الفجرُ، إلى أكواخِ

الحبّ المسروق

على أطراف

الصيفِ، إلى شجر

الرعشة، لشباكِ

الصيّادينَ:

أسمّيكِ العودةَ

فخذيني للأرصفةِ المالحةِ، إلى

أصوات الباعة خلف العربات

الورديّة، لصياح الصبيانِ، إلى الحبق

على البابِ، إلى دفء الرمل، إلى

شرفاتٍ يفتحها الليل على البحر:

خذيني للبحرِ وسمّي حلمي وهرانَ

أسمّيك الحُلُمَ فسمّي حلمي وهرانَ

وفكّي عصبةَ قلبي لأهاجرَ في الواوِ ليُقطّرَ جسدي ـ لغتي

عشقًا في النون ـ التكوين

وقلتُ:

أسمّيكِ الرحمَ

أسمّيكِ النونَ ـ نوالَ الحلمِ

وشهقة ميلادي ـ العودة للأنثى

قلتُ أسمّيكِ الأنثى

ضمّيني ليلاً كالسرِّ حميمًا لخصوصيّةِ مائكِ

بُوحي بي فجرًا لأُبشّرَ بالتأنيثِ

أكُنْ كالألفِ ـ البدءِ ترفُّ على اللّه الرحمن:

جليًا أمتدُّ ويَصرُخُني الخِصبُ

ومستترًا تُبطِنُني فاكهةُ الجسدِ كما الوجعِ ـ المعنى ـ الشهوةِ

قلتُ:

أسمّيكِ المعنى وأرتّبُ ليليَ أدراجًا خلف المدنِ

قلتُ:

سأصعدُ لأؤنّثَ ما يتبقّى من وجعي في أصقاعِ المدنِ الثلجيّةِ

قلتُ أسمّيكِ الأنثى

المدنَ

الميلادَ

الطفل

دمشقَ

العشقَ

العودةَ

وهرانَ

الشهقةَ

الأنثى

اللغة

الحلم

الوجعَ

التكوين

البدءَ

الهجرةَ

الشهوةَ

المعنى

قلتُ أسمّيكِ الأنثى

قُلتُ:

اتّخذيني لغةً

تورقْ من كفيَّ سلالمُ لصعود التأويلِ

وأُمسِ القولَ

أَصِرْ تأويلَ القولِ ـ التأنيثَ

وتأنيثَ القولِ

ـ

الحلمَ

وأصعدْ

قلتُ اتّخذيني..

قلت أسمّيكِ..

سأصعدُ

قلتُ سأصعدُ لأؤنّثَ

قلتُ سأصعد..

قلتُ سأصعد..

ليون (فرنسا)